الأخبار.. "أشكال من القيل والقال" لا يستطيع البشر الحياة بدونها.

كتاب جديد يحلل الوظيفة الأساسية التى وجدت لأجلها الصحافة

عرض وقراءة: د. أيمن عبد الهادي*

وجدت الصحافة لتنقل أخباراً وسيظل الخبر هو المادة الأساسية لهذا الوسيط الاتصالى. وسواء نشأت الصحافة فى ظل السلطة أو كانت معارضة لها أو حتى كانت على الحياد الأمر الذى لا يحدث كثيراً فإن المنتج الأساسى الذى تعمل فيه وينتظم عمل الصحفيين على أساسه هو تداول الأخبار وذلك بغض النظر عن اتجاه معالجتها.

والأخبار التى تعد شكلاً منظماً يُفترض فيه الصحة من أشكال القيل والقال التى تأسست عليها كما لاحظ المتخصصون فى الأنثروبولوجيا ثقافات البشر على اختلاف أجناسهم. اكتشف هؤلاء أن الناس يتشاركون فى التعريف ذاته لمعنى الأخبار. فى هذا السياق، كل ما تفعله الصحافة وببساطة على حد تعبير الباحث الأمريكى جيمس كارى هى أنها تنقل أحاديث الناس وتضخمها.

والأخبار تُشبع دافعاً فطرياً لدى الإنسان الذى يريد أن يعرف ما يحدث فى العالم من حوله وهو الأمر الذى يعجز عن القيام به لأنه لن يستطيع ببساطة أن يتواجد فى كل الأماكن التى تقع بها أحداث تمسه بشكل أو آخر او حتى لا تخصه ولكنه يرغب لأسباب متنوعة فى متابعتها. ثمة أحداث تهمه لكنها ليست فى متناوله وتخرج عن إطار خبرته المباشرة لذلك تولدت عنده حاجة ملحة إلى وسيط أو ناقل يمكنه ان يلعب له هذا الدور. وتلعب الصحيفة بعناصرها البشرية هذا الدور. الصحفيون ناقلوا الأخبار وهم أيضاً من بوسعهم تفسيرها والتعليق عليها. وهكذا ينقسم المضمون

* مدرس بقسم الصحافة – كلية الإعلام – جامعة القاهرة.

الصحفى إلى مواد خبرية موضوعية الجوهر ومواد تفسيرية يلعب الرأى فيها دوراً واضحاً. لكن تظل الغلبة للخبر لأن تفسيره يتم بالضرورة فى مرحلة زمنية لاحقة عليه.

يمكننا فى هذا السياق قراءة كتاب "الأخبار، نشأتها وتطورها" لأستاذة الاتصال المعولم تيرهي رانتان فى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية الذى نشرت مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة حديثاً ترجمته إلى العربية بتوقيع كوثر محمود محمد.

يبدأ الكتاب بسطور تلخص المعنى البسيط للأخبار كما يدور فى ذهن الأطفال عبر حوار بين مقدم للبرامج وعدد منهم:

المُحاوِر :هل تعلم ما هي الأخبار؟

تيمو (طفل في السادسة من العمر) : إنها تخبرنا بما وقَعَ من أحداث في كل بلد وتتنبَّأ بالطقس.

المُحاوِر :ما شكل الصور التي ترينها في نشرات الأخبار؟

نينا (طفلة في السادسة من العمر): مثيرة.

المُحاوِر: كيف تكون مثيرة؟

نينا :كصورة حريق أو منزل محترق.

المُحاوِر :ما الذي تشعرين به عندما ترين هذه الصور؟

نينا :في الواقع إنها تعجبني .لا أدري لِمَ أحب الصور المفزعة والقصص المثيرة.

بساطة هذا التعريف تتوازى مع المنهج الذى اتبعته رانتان فى تأليفها للكتاب فهو يطرح سؤالا غاية فى البساطة هو :"ما الأخبار؟" ويسعى للتأكيد عبر سرد تاريخى ممتع لنشاتها وتطورها إن الأخبار كانت دوماً تجدد نفسها بنفسها فى لحظات بعينها من العصور الوسطى وحتى ظهور وكالات الانباء ووصولاً إلى مدوني القرن الحادى والعشرين الذين يصولون ويجولون عبر الإنترنت.

والكتاب، باعتراف رانتان، ليس تأريخاً شاملاً للصحافة الخبرية إنما هو تاريخ يعتمد على عرض بعض من النماذج الفارقة واللافتة فى هذا التاريخ. هو بالأحرى تاريخ لتطور الأخبار وتحليل لجوانبها المتباينة وطرح لسؤال متعمق حول وجودها وجداوها.

وهكذا يتناول الكتاب :" الأخبارَ في الماضي والحاضر والمستقبل، ويوضِّح أن مفهوم "حداثة" الأخبار شهد تغيرات عدة على مدى القرون، وأن الأخبار في الأغلب هي روايات قديمة جرَى تحديثها .هذه الروايات تتَّخِذ في الوقت نفسه نَسَقًا زمانيًّا ومكانيًّا يتحدَّى فكرتَنا عن الفضاء النفسي في الماضي والحاضروالمستقبل . ويستعرض الكتاب، بدلًا من "النظر فى موضوعية الأخبار من عدمها" زمانيةَ ومكانيةَ الأخبار ليوضِّح كيف أنها لا تغيِّر من نفسها فحسب، وإنما تغيِّر أيضًا الفضاءَ المحيط بها بدورها: ويتخذ الكتاب "من دراسات الصحافة نقطة بدء من أجل تقصِّي الآثار الاجتماعية الأوسع نطاقًا للخبر".

وينقسم الكتاب إلى سبع فصول: الفصل الأول بعنوان: البعد الزماني؛ كيف أضحت الأخبار جديدة ويقف على أهمية عنصر الوقت فى إضفاء قيمة جوهرية للخبر، فالبعد الزمانى حتمى فى تعريف الأخبار ويستعرض الطرق الأربع التى يصبح بها الخبر جديداً وهى أن يطرح فى شكل جديد وأن يُبنى باعتباره "حدثاً جديداً" كما يمكن عرض الأخبار على أنها جديدة حتى إن كان الحدث الذى تدور حوله قديماً لأن فئة من متلقيه لم تحط به علماً ثم عبر التأكيد على كون الطبيعة الزمانية للخبر هى التى تجدده بصفة منتظمة لأنه يستحيل إنتفاء الأخبار أو أن تغيب المستجدات.

ويعالج الفصل الثانى ظاهرة "الكوزموبوليتانية" ويناقش فكرة مؤداها أن الأخبار لم تكن فى الأصل ذات طبيعة قومية أو دولية إنما كانت "كوزموبوليتانية" وذلك بخلاف ما أيدته البحوث عن العلاقة بين الأخبار" القومية و"الدولية". وتبرهن الكاتبة أن تبادل الأخبار كان يجرى بالأساس بين المدن الأوروبية الكبرى بداية من القرن الثانى عشر حتى القرن التاسع عشر وقد تغير ذلك دوماً مع ظهور تقنيات الاتصال الحديثة كالصحافة المطبوعة والتلغراف. وتذهب المؤلفة إلى أن تناقل الأخبار يرتبط بالتحول

الإقليمي الذى يغير من المدن ليجعل منها فضاءات كوزموبوليتانية أصبحت مدناً عالمية.

ويعالج الفصل الثالث مفهوم العولمة وتطبيقاته والذى ساهم فى عالمية الأخبار. وهذا الفصل يشارك فى الجدل الدائر حول توقيت العولمة ودور الأخبار المنقولة إليكترونياً فى عصرنا الحالى، ويؤكد أن: "الأخبار لعبت دورًا هامًا في العولمة عبر شبكات الكَبْلات البحرية الأولى منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كان استغلال الزمان والمكان على نطاق عالمي عنصرًا أساسيًّا في تسليع الأخبار"، ولا يدعم فكرة عدم محدودية فضاء الأخبار العالمى الجديد لأن مؤسسات الأخبار وفى إطار سعيها لتحقيق أغراضها التجارية وضعت مجموعة من الحدود المحكمة التى خضعت لرقابتها هى بالأساس.

وكان "تسليع الأخبار" هو موضوع الفصل الرابع. وتناقش الكاتبة هنا الكيفية التى تباع بها الأخبار والتى اعتبرت فى القرن التاسع عشر سلعة ثقافية جديدة فى عصرها لكنها اختلفت عن غيرها من السلع المعلوماتية لأنها كانت تتصف كونها "سلعة حصرية لم يتسن للجميع الانتفاع منها"، ثم يستعرض الدور الذى لعبه التلغراف وما أحدثه من ثورة في نقل الأخبار وهكذا نقلت الأخبار بسرعة الكهرباء ولم يكن من الممكن نقل السلع الأخرى إلا مادياً وهكذا صارت الأخبار "سلعة بلا وزن"، وكان ذلك مقدمة بشرت بمجتمع معلوماتي عالمي جديد استقر ورسخ مع ظهور الانترنت.

أما الفصل الخامس فعالج فكرة الطابع المحلى للأخبار ودرس المراحلَ المبكِّرة من التطوُّر التاريخي المبكِّر للمكان في الخبر. تسلِّطُ أغلبُ الدراسات اهتمامَها على محتوى الخبر أو "الحدث" وإنِ انصبَّ اهتمامُها على جغرافيا الخبر، كما في نهج تدفُّق الأخبار، فإنها تركِّز على الدولة القومية حيث ينشأ الخبر. ويتناول هذا الفصل كيف تأسَّسَ مفهومُ المكان في الأخبار الإلكترونية من القرون الوسطى حتى منتصف القرن التاسع عشر". ويذهب إلى أن الأخبار الإلكترونية زادَتْ من الشعور بالمكان

عبر تنظيم الفضاء المكاني، وأمكن لقرَّائها التمييز بين " هناك" (حيث وردَتِ الأخبار)، وبين "هنا" (حيث موطنهم)".

ويعد الفصل السادس امتداداً منطقياً للفصل الذى سبقه لكن ناقشت المؤلفة فيه هذه المرة فكرة إضفاء الطابع القومي على الأخبار والعلاقة بين الأخبار والدولة. وعرض هذا الفصل نتائج ثلاث دراسات حالة حول تطور ثلاث وكالات أنباء ألمانية وروسية وأمريكية وقد مثلت كل حالة منها واقعاً سياسياً وثقافيا مختلفاً لكن مع ذلك وبنهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بدأت وكالات الأنباء فى الاتجاه نحو التأكيد على ضرورة أن تخدم الأخبار بشكل حتمي المصالح القومية وهذا ما أثبته تاريخ وسائل الإعلام الإلكترونية التى خدمت قبل أى شىء مصالحها القومية.

وجاء الفصل السابع ليختم كل المقولات التاريخية والنظرية التى طرحتها تيرهي رانتان فهى عبر المقارنة بين حقبتين متباعدتين هما العصور الوسطى وعصر المعلومات ومن خلال توضيح أوجه الاختلاف والشبه بينهما تأكد لديها أن عالمنا المعاصر يتحدى المفهوم التقليدى والسائد للأخبار من أربع نواح:

أولاً: تفقد الأخبار بمفهومها الكلاسيكي جمهورها.

ثانياً: صارت التقنيات الجديدة تلعب دوراً محورياً فى جمعها ونقلها وتداول الأراء حولها.

ثالثاً: بدأ مفهوم الزمان فى الأخبار يتغير.

رابعاً: تغير الدور الذى تلعبه الأخبار فى المجتمعات المعاصرة.

ولاشك أن تغير الدور الذى كان يلعبه الخبر فى المجتمع كان محصلة لكل المراحل الحاسمة التى ساهمت فى تطور ماهية هذا الخبر، وقد لعبت المدونات التى باتت تنتشر بشكل غير مسبوق على شبكة الانترنت دورها فى ذلك لأنها تحدت العمليات المعروفة لنقل الأخبار من خلال مجموعة من الأساليب منها إفساح المجال للتفكير حول العمل الصحفى ذاته والذى لا تتيحه الصحافة التقليدية وتقليص اعتماد وسائل

الإعلام السائدة على المصادر الرسمية وتشكيل علاقات تفاعل جديدة بين مجموعات القراء التى لا تحدها الحدود المكانية وما يعنيه ذلك من إتاحة مساحة أكبر من الديمقراطية والتفاعلية.

وفى نهاية كتابها الثري ساقت رانتان ثلاث أمثلة آثرنا ان ننقلها هنا لتوضيح الخلاصة التى أرادتها للفكرة التى ارادتها من وراء تأليف الكتاب:

المثال الأول:

بين عامَيْ ١٥٠٠ و ١٨٠٠ ، عرض الباعة المتجولون والمشعوذون وتجارُ القصائد الغنائية القصصَ الجديدة في أزِقَّة الشوارع بجوار مدرِّبي الدِّبَبَة والبهلوانات والمهرجين والممثلين الكوميديين والدجَّالين. لم تكن قصصهم بالضرورة جديدةً، ولم تَبْدُ مثلَ ما نعرفه اليوم كخبر، لكنها ضمَّتْ عناصر صارت فيما بعدُ تُعَدُّ سماتٍ مميزةً لجنس الأخبار الأدبي، ولم يُرَ أن ثمة اختلافًا كبيرًا يفصل بين القصص والأخبار وبين الحقيقة والخيال. كانت الخطابات الشخصية تُعَدُّ قصصًا جديدةً، ويجري تبادُلها بوصفها كذلك مع الآخرين، وجرى تبادُلُ القصص الجديدة داخل المدن التي كانت شبكاتُ التواصُل بين بعضها مهمةً لمكانتها.

المثال الثانى:

قبل مائة وأربعين عامًا، الْتَقَى كلٌّ من ميسرز هافاس ووولف ورويتر في باريس في ١٥ من يوليو عام ١٨٥٩ لمناقشة نشاطهم التجاري الجديد، أَلَا وهو بيع الأخبار المنقولة إلكترونيًّا. كان ثلاثتهم قد أسَّسوا وكالات تلغراف حملت أسماءهم، وهنا تحالفوا لتوقيع أول عقد انتفاع حصري بالأخبار بينهم، قسَّمَ بينهم السوقَ العالمية للأخبار المنقولة إلكترونيًّا. وبعد قرابة تسعين عامًا، في ١٣ من فبراير عام ١٩٣٤ ، الْتَقَى السير رودريك جونز من وكالة أخبار رويترز بالسيد كينت كوبر من وكالة أسوشيتد برِس، وعندما أخبر الأخيرُ الأولَ بأن وكالة أسوشيتد برِس ترفض توقيعَ عقد مع وكالة رويترز، قال السير رودريك: " سيد كوبر، أحتاج إلى عقد؛ سأوقِّع على أي

عقد تصوغه!" وفى نهاية المطاف، وقَّعَا عقدًا يضع نهاية لتبادُل الأخبار الحصري الذي قام في عام ١٨٥٩.

المثال الثالث:

تطوَّرت مدونات ما بعد الحداثة بحيث تجاوزت كونها مذكراتٍ تكتب على الإنترنت يدير بها الأشخاصُ حسابًا (أو مدونة) عن حياتهم الشخصية. وكما كانت الحال مع القصص الجديدة فى العصور الوسطى، "أنشد" المدوِّنون في العصر الحديث قصصَهم إلى جانب مؤدِّين آخَرين، لا عند زوايا الشوارع، بل على الشبكة العنكبوتية العالمية، ولم تَعُدْ هناك حاجة لأن "يسافر" شيءٌ بعد الآن، لا الأخبار، ولا الصحفيون، ولا الأفراد؛ فكل هؤلاء يلتقون في ظلِّ العالم الافتراضي بالشبكة العنكبوتية العالمية؛ كما انتهى عهد الأخبار "الخالصة" فكلُّ مَن يملك الوصول للتقنيات الحديثة يمكنه اليوم أن يصبح مراسِلًا إخباريًّا أو معلِّقًا صحفيًّا.

وفسرت الكاتبة الأمثلة السابقة كالتالى: فى الحالة الأولى كان ثمة تجار للأخبار يبيعونها لجمهور ضئيل العدد، وفى الحالة الثانية كانت أولى شركات الأخبار العالمية تبيع أخبارها لوسائل الإعلام وتؤسس مجالاً مضموناً لأسواقها الحصرية وأدى ذلك إلى تزايد أعداد جمهور الأخبار ومستهلكيها الذين توزعوا على وسائط تنوعت بين الصحف والراديو والتليفزيون. أما المثال الثالث والأخير لم تعد مؤسسات الأخبار هى مالكها الوحيد ولم يعد جمهور الصحف الخبر يقرأ الصحف نفسها وفى الوقت نفسه أو يتابعها على شاشات التليفزيون أو يسمعها تنطلق من أجهزة الراديو بل صار جمهوراً ضخماً يتجول فى عالم افتراضى بلا حدود وقيود ويستهلك الأخبار وقتما يحلو له وأينما كان وهكذا صرنا نشهد نهاية الأخبار بمفهومها التقليدي الذى هيمن خلال القرن التاسع عشر وصار تعريفها أمراً صعباً رغم بساطته المفترضة.